

علم الأصوات الحيوانية عند العرب

الأستاذ عبدالهادي الفيضي أستاذ اللغة العربية بكلية اللغة
"النجف الأشرف" بعراقه

وثالثة أمادها وهو يربط على ظهر الكلب أو كتفه
وتقبل وضع المسحوق في فمه أيضا .
فكانت النتيجة ذاتها .

فاهتدى من هذا الى ان المنبهات البديلة أو ما
يسمىها بـ (المنبهات الشرطية) تستدعي الاستجابة
أو ما سماه بـ (الفعل المنعكس الشرطي) كما
تستدعيها المنبهات الطبيعية .

وقد اطلق على تعلم الحيوان الاستجابة للمنبهات
الشرطية مصطلح (التعلم الشرطي) .

وانتهى أيضا الى ان هذا اللون من التعلم موجود
في جميع الحيوانات حتى أحطها .. والى انه يستطيع
بواسطة تفسير جميع مظاهر السلوك الانساني
والحيواني (1) .

ونحن عندما نرجع الى تراثنا العلمي العربي نجد
جذور هذه النظرية تبدأ وبتفصيل من قبل العلامة
النحوي العربي رضي الدين الاسترأبادي المعروف بـ
(الرضي) والمتوفى عام 684 هـ ، وذلك في كتابه
النحوي (شرح الكافية) عذد دراسته موضوع
(الاصوات) .

قال :

« وثالثها : أصوات يصوت بها للحيوانات عند

يعزو تاريخ علم النفس وضع نظرية التعلم
الشرطي الى العالم الفسيولوجي الروسي إيفان
پتروفيش بانلوف Pavlov المتوفى 1936 م .

وهي من مهمات نظريات التعلم ومن مهمات
موضوعات علم النفس .

ويعني التعلم الشرطي : ذلك الترابط الآلي بين
الاستجابات الطبيعية والمنبهات الصناعية الشرطية ،
والذي تنوب فيه اشارات ورموز اشارة السلوك عن
المنبه الاصلي .

وقد توصل اليها العلامة بانلوف من تجاربه التي
أجراها على الكلب الذي كان يثبت على مائدة التجارب .

حيث كان يضع على لسان الكلب مقدارا من
مسحوق اللحم المجفف ، قارعا جرسا كهربائيا قبيل
وضع المسحوق في فم الكلب .

ولاحظ بعد ان كرر التجربة اكثر من مرة ان قرع
الجرس الكهربائي وحده كاف في المراز لعاب الكلب .

واعاد التجربة مستبدلا قرع الجرس باضاءة
مصباح امام الكلب وتقبل وضع المسحوق في فمه أيضا .

ولاحظ ان اضاءة المصباح وحدها بعد تكرار
التجربة كافية في أن يسيل لعاب الكلب عند رؤيتها .

(1) أصول علم النفس للدكتور أحمد عزت راجح 281.

طلب شيء منها ، أما المجيء كالفاظ الدعاء نحو
(هوت) و (قوس) ونحوهما ، وأما الذهاب كـ
(هلا) و (هج) و (هجا) ونحوها ، وأما أمر آخر
كـ (ساء) للشرب و (هذع) للتسكين .

وهذه اللفاظ ليست بما يخاطب به هذه
الحيوانات المعجم حتى يقال انها أوامر . أو نواه — كما
ذهب اليه بعضهم — لانها لا تصلح لكونها مخاطبة ،
لعدم فهمها للكلام كما قال الله تعالى : (كمثل الذي
ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء) (1) ، بل كان أصلها
ان الشخص كان يتعمد انقياد بعض الحيوانات لشيء
من هذه الاعمال فيصوت لها اما بصوت غير مركب من
الحروف كالصليخ للدابة عند ايرادها الماء ، وغير ذلك ،
وأما بصوت معين مركب من حروف معينة لا معنى تحته
ثم يحرضه مقارنا لذلك التصويت على ذلك الأمر اما
بضربه وتأديبه ، واما بايناسه واطعائه ، فكان
الحيوان يمثل المراد منه اما رهبة من الضرب أو رغبة
في ذلك البسر .

وكان يتكرر مقارنة ذلك التصويت لذلك الضرب
أو البر الى ان يكتفي الطالب بذلك الصوت ممن
للضرب أو البر لانه كان يتصور الحيوان من ذلك
الصوت ما يصحبه من الضرب أو ضده فيمثل عقيب
الصوت عادة ودربة مضار ذلك الصوت المركب ممن
الحروف كالامر والنهي لذلك الحيوان .

وانما وضعوا مثل هذا الغرض صوتا مركبا من
الحروف ولم يقتنعوا بسادج الصوت لان الصوت من
حيث هو هو مشتبه الأفراد وتمايزها بالتقطيع والاعتماد
على المخارج سهل ، فلما كان الاعمال المطلوبة ممن
الحيوانات مختلفة أرادوا اختلاف العلامات الدالة عليها
فركبوا من الحروف .

وما ذكرنا من الترتيب يتبين منه كيفية تعليم
الحيوانات كالدب والقرد والكلب وغير ذلك .

هذا . . وانا لا ارى منعا من ارتكاب صيرورة
هذه الاصوات المقارنة في الاصل للضرب أو البر لما
استغنى بها الطالب عنهما اسماء اعمال بمعنى الامر

— كما ذهب اليه بعضهم — فتكون أوامر ونواهي ،
لان الله سبحانه وتعالى جعل العجاوات في فهم المطلوب
من هذه الاصوات بمنزلة العقلاء ، فلا بأس بان تخاطب
وتكلم بما تفهمه كالعقلاء « (2) .

وفي ضوء المقارنة بين هذا النص (الذي نقلته
بكامله ليماد منه) وبين تجارب بالملوف ونتائجها ..
نستطيع ان ننتهي الى ان الرضي كان سابقا في الاهتداء
الى هذه النظرية (نظرية التعلم الشرطي) .

وربما انماها من ملاحظاته المتكررة لحيياة
الحيوان وسلوكه حيث لم يذكر تاريخيا انه قام بتجارب
مماثلة لما قام به بالملوف .

والنظرية كما تأتي نتيجة لتجارب تجري في معامل
الترويض ، تأتي ايضا نتيجة للملاحظة المنظمة
الدقيقة للسلوك .

ونستطيع ان نعلل عدم اعطاء اهتداء الرضي
للمنظرية الاهتمام الفرسي المطلوب ، بمجيئه سابقا
بقرون لوجود علم النفس ، ولانه كان في مجال غير
نفسى وهو المجال النحوي .

وعامل آخر عدم دراسة نظريات الرضي لغوية
وغيرها من قبل الباحثين العرب أو غيرهم — فيما
اعلمه .

نقد خلف الرضي ثروة علمية ضخمة ، وذلك في
كتابه (شرح الكافية) في علم النحو العربي (وشرح
الشامية) في علم الصرف العربي ، اللذين هالج فيهما
مسائل ذبنيك الملمين ونظرياتها معالجة واهية اصميت
بالاصالة في الرأي والمبني في البحث والانتهاى الى آراء
خاصة ذات قيمة مهمة في المجالين اللغوي والنحوي
منحته لقب (المحقق) بين العلماء (ونجم الائمة)
باستحقاق .

وأخيرا :

للعالم بالملوف تأكيد النظرية بالتجربة العملية ،
وبلورتها الى مصطلح أخذ مجاله العلمي .

(1) 171 / البقرة .

(2) شرح الكافية 80/2 و 81 .